الحياة الاجتماعية في مصر الرومانية

تعددت طبقات المجتمع المصري خلال الحكم الروماني مثلما تعددت من قبل خلال الحكم البطلمي ، وظل المصريون يكونون غالبية المجتمع في مصر مع وجود عناصر أخري مثل الإغريق واليهود والسوريين والليبين والفينيقين وغيرهم من العناصر التي وجدت في مصر ملجأ للعمل والاستقرار .

ولكن أُضيف على كل تلك العناصر عنصراً جديداً خلال الحكم الروماني إلا وهو المواطنون الرومان الذين جاءوا مع الحكم الجديد كموظفين في إدارة الولاية أو كجنود في الحامية الرومانية أو كمستثمرين للأموال في مصر ، مما دفع هؤلاء الرومان إلي الاستقرار في مصر وكونوا جالية رومانية وجدت في مناطق مختلفة في مصر .

وقد كان التكوين الاجتماعي في مصر خلال الحكم الروماني يتخذ شكلاً هرمياً يأتي على رأسه طبقة الرومان ثم طبقة السكندريين ثم اليهود ثم المصريون .

ويمكن أن نتعرف على البناء الاجتماعي في مصر خلال الحكم الروماني من خلال كاتب روماني معروف يدعى بليني الأصغر (والذي شغل عدة مناصب إدارية في الإمبراطورية الرومانية) حيث كتب إلي الإمبراطور تراجان يقول في رسالة يوجهها إليه .

" أتقدم بشكري لك يا مولاي على استجابتك الفورية بمنح حق المواطنة الرومانية إلي كاتبي الخاص هربوكراس Harpocras إلي أن هناك أحد الأفراد الأكثر دراية مني بالقانون قد نبهني أن أحصل له على حقوق المواطنة السكندرية أولاً ، لذلك فإنني أدرع لك (أرجو منك) أن توافق على منحة حقوق المواطنة السكندرية حتى يتثني له التمتع بما منحته (حق المواطنة الرومانية) طبقاً لقانون .

ورد علية الإمبراطور تراجان قائلاً :-

" أنه بناء على ما سبق إتباعه من نظم وضعها الأباطرة (السابقين) فان سياستي تقوم على عدم منح المواطنة السكندرية بسهولة ولكن بما أنك بالفعل حصلت على المواطنة الرومانية لكاتبك هربوكراس ، فأنني لا أستطيع أن ارفض طلبك المترتب علية ولكن دعنى أن أتحقق من المديرية التي ينتمي إليها كاتبك الخاص (هربوكراس) حتى يمكنني أن أكتب إلي صديقي الوالي في مصر بومبيوس بلانتا Pompius Planta عن هذا الأمر " .

وإذا ما نظرنا إلي الرسالتين السابق ذكرهما يتبين لنا صحة ما ذكرناه سابقاً من أن أعلي الطبقات في تكوين الهرم الاجتماعي في مصر أثناء الحكم الروماني هم حاملي المواطنة الرومانية والتي كان يسعى إليها الكاتب الخاص لبليني الصغير (هربوكراس) وتم له الحصول عليها ، كما نتبين من خلال الرسالتين أيضاً أن المواطنة السكندرية تأتي في الترتيب الثاني لطبقات المجتمع المصري ، ثم يأتي المصريون كطبقة أخيرة في ذلك المجتمع آن ذاك .

ويبدو كذلك من خلال الرسالتين إلي أنه كان من الصعب الانتقال من طبقة المصريين إلي طبقة السكندريين مثلاً أو من طبقة المصريين إلي طبقة الرومان ويتضح ذلك من أشارة تراجان إلي أنه لم يكن من السهولة الحصول على حق المواطنة السكندرية حيث أنه لم يكن مسموحاً لأي فرد من طبقة أدني من الصعود إلي طبقة أخري أعلى .

وقد كان مقياس تقسيم طبقات المجتمع في مصر خلال الحكم الروماني ضريبة الرأس Laographia وتلك الضريبة التي كانت آن ذاك والتي كان لا يتم جبايتها من المواطنين الرومان قاطني مصر كما كان يُعفي منها حاملي المواطنة السكندرية أما سائر السكان فكانوا يدفعون هذه الضريبة ، إلا أن مقدراها تفاوت بالنسبة للعناصر الإغريقية التي سكنت عواصم النومات " المتروبولين " Metropolites المصرية وكذلك بالنسبة للمصريين الفلاحين من أهل القرى والريف من منطقة إلي أخري .

طبقة الرومان ..

وهي الطبقة الحاكمة وأرقي طبقة في مصر آن ذاك ، وبالتالي فإنها تمتعت بالكثير من الامتيازات وكانت تلك الطبقة تتكون من الوالي الروماني رأس السلطة الرومانية في مصر وكان يلقب Praefrectus Aegypti وهو ممثلاً لشخص الإمبراطور ، وعادة ما كان يشغل منصبة هذا ما بين عام إلي ثلاثة أعوام ويساعده طبقة من المواطنين الرومان تشغل كل المناصب الادارية العليا في الولاية ، ويقيمون جمعياً في الإسكندرية باعتبارها مقر عملهم ، ويضاف إلي هؤلاء طبقة رجال الأعمال والتجار الرومان الذين كانت لهم مصالح تجارية بالإسكندرية باعتبارها أهم ميناء تجاري في شتى أنحاء الإمبراطورية على الإطلاق .

أما السواد الأعظم من تلك الطبقة فكان يأتي مصدره من الحامية الرومانية والتي كانت تتكون من جنود من أنحاء متفرقة من الإمبراطورية وعند تسريحهم كانوا يمنحون الجنسية

الرومانية وأكثر هؤلاء الجنود كانوا يفضلون البقاء في مصر نتيجة لاختلاطهم بالشعب المصري مدة كبيرة .

ووصلت أعداد الحامية الرومانية في مصر في بداية احتلال الرومان لمصر حوالي 23.000 جندي ، وفي عهد الإمبراطور تبيريوس 17.000 جندي ووصلت في القرن الثاني إلي ما يقرب من 11.000 جندي .

وكان المواطنين الرومان فقط هم المسموح لهم بتادية الخدمة العسكرية في الفرق ، وكانت مدة الخدمة العسكرية في تلك الفرق خمس وعشرين عاما . اما الفرق المساعدة فإنها كانت تتكون من مواطنين لا يحملون حق المواطنة الرومانية ويستطيع من يخدم فيها لمدة خمس وعشرون عاماً أن يحصل على حق المواطنة الرومانية ، ولم يكن مسموحاً للمصريين بالخدمة العسكرية في تلك الفرق وبالتالي فأنه كان أمراً عسيراً حصول المصري على المواطنة الرومانية .

وفي نهاية القرن الثاني الميلادي تغيرت أحوال الانضمام لصفوف القوات المساعدة ، فتم فتح باب التطوع أمام الشباب من سكان عواصم المديريات وغالبية هؤلاء كانوا من إغريقي الأصل ، وكانت الفرق المساعدة تشمل المشاة والفرسان ورجال البحرية الذين عسكروا في الإسكندرية للخدمة في الأسطول الروماني سواء في البحر المتوسط أو في نهر النيل لتأمين التجارة النهرية أو كفرق للحراسة على النهر .

وقد اختلط جنود الحامية الرومانية بالأهالي وساعد على ذلك الهدوء والاستقرار الذي ساد في الكثير من فترات الحكم الروماني لمصر ، فكان ميسراً لهؤلاء الجنود الاختلاط بالأهالي وذلك لطول فترة الخدمة العسكرية فكان هذا الاختلاط في مختلف وجوه الحياة الاجتماعية والاقتصادية ، فمع أن القانون الروماني كان يحظر على الجنود الزواج من أهالي الولايات إلا أن هؤلاء الجنود كثيراً ما أقاموا علاقات غير شرعية بالنساء من وجهة نظر القانون الروماني وانجبوا أطفالاً منهم غير شرعيين ، وعند تسريح هؤلاء الجنود كانت الإدارة الرومانية في مصر تعترف بهذه العلاقات كزواج وكذلك الأطفال الذين تم انجابهم في فترة الخدمة التي كان الجندي يقضيها وكانوا يمنحون جميعاً المواطنة الرومانية .

وتشير أوراق البردي الي كيفية تحايل الجنود على القانون الروماني في عقد مثل هذه الزيجات أثناء الخدمة العسكرية ، ونخلص من إحدى تلك البرديات أن هناك خطاب موجه من

شخص يقطن بالإسكندرية إلي والده يستشيره في طلب أحد جنود الحامية الرومانية يد أخته للزواج .

ولما كان القانون الروماني يحظر زواج الجنود الرومان أثناء الخدمة العسكرية فقد تحايل هؤلاء الجنود على القانون آن ذاك ويشير العبادي إلي ذلك مستشهداً بإحد أوراق البردي التي توضح لنا كيفية هذا التحايل من قبل الجنود الرومان على حظر الزواج أثناء الخدمة العسكرية ، فالجندي كان يلجأ إلي حيلة قانونية تجعل الاتفاق بينة وبين المرأة التي سيتزوجها له صيغة عقد يكفل للمرأة ضماناً كافياً لاتمام هذا الزواج وذلك عن طريق " المهر " الذي كانت تقدمة الزوجة عادة لزوجها عند الزواج بمثابة وديعة لدي زوجها ويقوم كل من الزوج والزوجة بالتوقيع على عقد يوضح ذلك .

ومن خلال أوراق البردي نستشف من أحد أوراق البردي أن جندياً يدعي جايوس يوليوس أبوليناريوس وامرأة تسمي بترونيا قد عقد بينهما يوضح أن هذا الجندي " جايوس " قد استلم من بترونيا ملابس نسائية قيمتها ثلاثمائة دراخمة وحلي من الذهب المشغول.

ومع أن صيغة هذا العقد تشبه تماماً شروط عقد الوديعة إلا أن الأشياء المودعة تكشف وجه التحايل على القانون الروماني المانع للزواج أثناء الخدمة العسكرية للجنود ، فلا شك أن الأشياء المودعة والمذكورة في ذلك العقد تماثل تلك الأشياء التي يتم ذكرها عادة فيما يتعلق بوصف مهر المرأة في عقود الزواج المتعارف عليها آن ذاك .

وقد انتشرت هذه الزيجات بين جنود الحامية الرومانية في مصر وكان نتاجها أبناء كانوا عادة ما يجندون فيما بعد في الفرق الرومانية وكان يذكر رسمياً أمام أسمائهم أنهم من مواليد المعسكرات Kastresios مما يعني اعتراف ضمن السلطات الإدارية بموقف هؤلاء الأبناء.

ولم يقتصر تواجد المواطنين الرومان في مصر على جنود الحامية الرومانية وإنما تشمل أيضاً الموظفين الذين حضروا من روما للعمل في إدارة ولاية مصر ، وكذلك بعض التجار والمستثمرين الرومان الذين تواجدوا في مصر للاستفادة من مكانتها التجارية والاقتصادية ، أضف إلي ذلك عدد كبير من أبناء الطبقات العليا في مصر آن ذاك والذين استطاعوا الانخراط في خدمة الحامية العسكرية واكتسبوا بعد مرور خمس وعشرون عاماً الجنسية الرومانية بجانب عدد غير قليل من حاملي المواطنة السكندرية ممن استطاعوا الحصول على المواطنة الرومانية وتدريجياً زاد

عدد المواطنين الرومان في مصر وكانوا يمثلون الطبقة العليا في المجتمع المصري في ذلك الوقت ، مما مكنهم من التمتع بالعديد من الامتيازات مثل الإعفاء من بعض الضرائب أو خفضها وكذلك الإعفاء من الأعباء الإلزامية وتولي الوظائف المحلية .

وقد انتشر المواطنون الرومان في ربوع مصر وكونوا رابطة لأنفسهم أينما وجدوا وتشير الدلائل على أن المواطنون الرومان انتشروا في شتئ أنحاء البلاد ، وتكشف لنا بردية من مدينة اوكسيرنخوس .

عن ذلك فنذكر لنا أن المواطنون الرومان تواجدوا في إحدى اجتماعات المدينة العامة .

طبقة السكندريتن ...

وقد كانت طبقة السكندريين تلي طبقة الرومان في الترتيب الطبقي للمجتمع المصري خلال الحكم الروماني لمصر ، ويجب الإشارة أن من تمتعوا بحق المواطنة السكندرية كان أغلبهم أن لم يكن جميعهم إغريقي الأصل وقطنوا الإسكندرية منذ عهد البطالمة وكانوا يتمتعون ببعض الامتيازات التي تميزهم عن بقية المجتمع المصري في ذلك الوقت ثم أثناء حكم الرومان ، وقد أتضح هذا التميز في العديد من الوثائق الرسمية الخاصة بالضرائب وجبايتها والتي يتضح منها أن هذه الطبقة تمتعت بالإعفاء والتخفيض في بعض الأحيان من بعض الضرائب التي كانت تجبي خلال الحكم الروماني لمصر .

وقد تمتعت تلك الطبقة أيضاً بالثراء فكانت تمثل مع طبقة الرومان الطبقة الاستقراطية في مصر ، وبمراجعة قوائم أصحاب الأملاك في بداية الحكم الروماني لمصر يتضح بصورة جلية مدي ثراء تلك الطبقة .

ولا جدال في أن ثراء تلك الطبقة كان يرجع إلي الأعمال التجارية التي كان السكندريون يشتغلون بها ، واستطاعوا استغلال فترة الازدهار الاقتصادي التي تمتعت بها الإسكندرية خلال الحكم الروماني في أن يصبحوا أثري الطبقات امتلاكاً للأراضي في مصر خلال الحكم الروماني لمصر وقد كانت لطبقة السكندريين مساحات مملوكة من الأراضي في شتى أنحاء المدن والقري المصرية وكانت أراضيهم التي تقع في دائرة مدينة الإسكندرية معفاة من الضرائب ، هذا فضلاً عن إعفاءه من ضريبة الرأس التي كانت تجبى من عامة الشعب .

وقد تمتعت تلك الطبقة " السكندريين " بحق اكتساب المواطنة الرومانية من خلال الامتيازات القانونية التي مُنحت لهم والتي استطاعوا من خلالها الالتحاق بالخدمة العسكرية في الجيش

الروماني ، وبالتالي اكتساب المواطنة الرومانية فور تسجيلهم في هذه الفرق أما باقي السكان فكان من حقهم فقط الخدمة في الفرق المساعدة التي لا تعطيهم الحق في الحصول على المواطنة الرومانية بعد انقضاء الخدمة والتي كانت مدتها خمس وعشرون عاماً كما كان حامل المواطنة الكسندرية من حقه أن يتقدم بطلب للحصول على المواطنة الرومانية للإدارة الرومانية فكما أشرنا سابقاً للرسالة التي أرسلها بلنيني الصغير إلي تراجان يطلب فيها حصول كاتبة على المواطنة السكندرية لأنه لا يحق له الحصول على المواطنة الرومانية إلي بعد أن يكون قد حصل على المواطنة السكندرية أولاً مما يوحي لنا أن حامل المواطنة السكندرية كان من حقه الحصول على المواطنة الرومانية .

وقد كان السكندريون يسعون دائماً للحصول على المواطنة الرومانية للتمتع بامتيازات أكبر من تلك التي يتمتعوا بها لذا فسرعان ما أصبح عدد كبير من المواطنين الرومان في مصر من أصل سكندري ، ومع كل المميزات التي تمتع بها حاملي المواطنة السكندرية إلا أنهم عانوا أيضاً من التعنت والاضطهاد من جانب الإدارة الرومانية ، فقد حرمت هذه الطبقة من تكوين مجلس Boule والذي يمثل الجانب الديمقراطي لهذه الطبقة مما دفعهم إلي كراهية الحكم الروماني .

المصريون ...

وتأتي بعد ذلك طبقة المصريون ونعني بها سكان مصر من غير الرومان والسكندريين .

وهذه الصفة تطلق أيضاً على قاطني الريف سواء اكانوا ينحدرون من أصل مصري أو إغريقي ، فالإغريقي لم يكن مميزاً خلال الحكم الروماني عدا كونه يحمل حق المواطنة السكندرية .

ولم يكن المصريون يكونوا طبقة واحده بل أنهم انقسموا فيما بينهم إلي عده طبقات وفئات مختلفة من حيث المكانة الاجتماعية والتي كانت يحددها آن ذاك المستوى المعيشي للفرد ولكن الصفة التي جمعتهم جميعاً خضوعهم لضريبة الرأس ، مع أنها كانت تختلف في جبايتها من فرد إلي أخر حسب مكانته أو حسب المنطقة التي يعيش فيها ، فنري أن الفئات الأكثر غني ورقيا مثل الإغريق والمتاغرقين من أهل المتربولات يدفعونها فتصل في بعض الأحيان إلي ثماني درخمات في حين أن الفقراء من الفلاحين وأصحاب الحرف يدفعونها كاملة "أربعون دراخمة" هذا بجانب تأديتهم جميع الضرائب الآخري ، كما أنهم كانوا يخضعون للتكيف بالأعباء الالزامية مثل بناء الجسور وترميمها وحفر المصارف وشق الترع ، وما يسند إليهم من أعمال الحراسة والنقل .

وقد حرصت الإدارة الرومانية على أن تظل التنظيمات الخاصة بالطبقات كما هي دون المساس بها وقد أشرنا سابقاً أنه كان من الصعب للغاية التحول من طبقة المصريين مثلاً إلي طبقة حاملي المواطنة السكندرية أو المواطنة الرومانية وهذا فيما يبدو كي تظل الفواصل بين الطبقات دون تغير فمع الحالات الكثيرة التي حدث فيها اختلاط وتزاوج بين المصريين والإغريق ونتج عنها أطفال كانت الإدارة الرومانية تضع تنظيمات ومبادئ للحفاظ قدر الإمكان على الفصل بين الطبقات الاجتماعية ، فمثلاً تشير الوثائق البردية إلي أن الأطفال الذين يولدون من أم إغريقية أو رومانية وأب مصري يتبعون وضع الأب ، ولكن من حق هؤلاء الأطفال أن يرثوا كلا الأبوين في حين أنه إذا ما تزوج رجل إغريقي أو روماني أمرأة مصرية لا يحق للأبناء أن يكونوا رومان ، وإذا ما تزوج إغريقي من أمراة مصرية ومات دون أن ينجب أطفالاً تؤول كل أملاكه إلي خزانة الدولة ، وإذا أنجب منها يحق لخزانة الدولة الحصول على ثلثي أملاكه وتترك الثلث لأطفاله وإذا تمت مخالفة هذه النظم والقوانين كان يتعرض من يخالفها إلي عقوبات شديدة .

ولاشك أن تلك القوانين كانت جائرة فيما يتعلق بأوضاع المصريين دون غيرهم من الطبقات الباقية .

وقد ظل المصريون على حالهم هذا حتى اشتدت وطأة الحكم الروماني عليهم وذادت أعبائهم الضريبية والإلزامية وضاقت أحوالهم الاقتصادية مما دفعهم إلي الفرار من أراضيهم باحثين عن ملجأ يلجأون إلية فهربوا إلي المستنقعات والأحراش التي وجدت في الدلتا وامتهنوا قطع الطرق وفي أحيان قليلة كانوا يهاجرون إلي المدن وخاصة الإسكندرية للاختباء في زحامها والبحث عن عمل يؤدونه حتى يستطيعون العيش من دخلة ، ونستدل على ذلك من قرار الإمبراطور كاراكلاً الذي أصدره أثناء زيارته لمصر عام 215م والتي صاحبها اضطربات عنيفة في مدينة الإسكندرية أدت إلي قتل الكثيرين من أهلها ، وهذا القرار قضي بأن يطرد من المدينة المصريين واستثني من ذلك فئات مثل تجار الخنازير ورجال القوارب النيلية وجامعي الحطب لوقود الحمامات ، وقد فرق هذا القرار بين المصريين السكان الأصليين للإسكندرية والذين كانوا يعملون بها " مثل عمال النسيج المصريين " وبين اللاجئين إليها من الريف .

وإذا كان هذا القرار قد صدر بعد صدور قرار كاركلا لمنح الجنسية الرومانية لكل شعوب الإمبراطورية عام 212م أي أن هؤلاء المصريين كانوا مواطنين رومان فما هي طبيعة أحوال هؤلاء المصريون قبل صدور قرار كاركلاً لمنح الجنسية الرومانية لكل الشعوب .

اليهود ...

ولقد عرفت مصر منذ القدم هجرة الشعوب الاسيوية إليها وكان ضمن تلك الشعوب الشعب اليهودي حيث هاجر من فلسطين إلي مصر كلما ضاقت بهم السبل ، فقد حدثت هجرة كبيرة لليهود من بلادهم إلي مصر في أوائل القرن السادس ق . م ، وذلك كان نتيجة طبيعة لغزو الملك البابلي " نبوخذ نصر " لبلادهم وأن الاستيلاء على أورشليم وتدميره لهيكلهم وذلك عام 586 ق . م .

وقد أشتغل اليهود في تلك الأثناء بالعمل كجنود وتجار في أنحاء متفرقة من مصر ، وظل بعضهم موجوداً في مصر خلال الحكم الفارسي وكذلك خلال الحكم البطلمي لمصر .

ولا جدال أن الجالية اليهودية في مصر خلال الحكم الروماني كان لها دوراً فعلاً في الأحداث التي جرت في مصر آن ذاك ويذكر فيلون أن عدد اليهود في مصر في بداية الحكم الروماني بلغ حوالي الميلون ، ومع أن هذا العدد مبالغ فيه إلا أنه يدل على ضخامة تلك الجالية في مصر في ذلك الوقت ، ويذهب البعض من المؤرخين إلي القول بأن تزايد أعداد اليهود في الإسكندرية جعلهم يشغلون اثنين أو أكثر من الأحياء الخمس لمدينة الإسكندرية بعد أن كانوا يشغلون حي الدلتا فقط قبل ذلك .

وقد كان استقبال اليهود للرومان في بداية استيلائهم علي مصر دافعاً للرومان لتقريبهم واستخدامهم لتنفيذ مأرب الحكم الروماني ، لذا نري أغسطس يعترف لهم بما كان لديهم من امتيازات خلال الحكم البطلمي مثل إعطاءهم الحرية في ممارسة شعائرهم الدينية والسماح لهم بتكوين مجلس الشيوخ gerusia على خلاف ما أتبعة مع السكندريين حين منعهم من تشكيل مثل هذا المجلس التشريعي في مدينتهم مما أشعر اليهود بأنهم مميزين عن السكندريين .

ومع أن اليهود كانوا يدفعون ضريبة الرأس مثلهم في ذلك مثل عامة الشعب المصري إلا أن الامتيازات التي أغدقها عليهم أغسطس ومحاباتهم للأباطرة الرومان بوجه عام أعطي لهم أحساس بأن من حقهم الحصول على المواطنة السكندرية ، فأخذوا يقحمون أنفسهم في مسابقات

المجنازيوم مما حفز السكندريين ضدهم ، وتفجرت المنازعات والفتن بين الفئتين في الإسكندرية عام 38 م .

وقد حاول اليهود الحفاظ على امتيازاتهم ولكن ثوارتهم المتتالية خلال القرنين الأول والثاني على الرومان في كل من فلسطين ومصر وبرقة جعلتهم يفقدون الكثير من تلك الامتيازات

وقد عانت مصر من ثورة اليهود الثانية على الحكم الروماني والتي اندلعت أثناء حكم تراجان والتي شجعهم على القيام بها وإشعال فتيل تلك الثورة في مصر سحب بعض القوات الرومانية من مصر في عهد تراجان للحاجة إليها في حرب بارثيا مما أتاح لليهود الفرصة للانقضاء على أفراد الحامية المتبقين ثم ما لبث اليهود قورينائية ما انضموا إلي يهود مصر وعاثوا في البلاد قتلاً وفساداً واستمرت تلك الثورة حتى عهد هادريان وفي عام 117 استطاع الأهالي المصريين بمساعدة الوالي والحامية من هزيمة اليهود ودحرهم إلا أن أثار ثورتهم بقيت حتى زار هادريان مصر وأغدق على الأهالي العطايا تعويضاً لهم عما لاقوه من معاناة .

وقد ظل اليهود على حالهم من مداهنة الحكام والرومان والسير في ركبهم حتي يحصلوا على حق المواطنة السكندرية إلا أنهم في نهاية الأمر لم يحصلوا عليها وظلوا من الناحية القانونية مثلهم مثل المصريين يجب عليهم دفع ضريبة الرأس